

عرف عبيدین يوماً بحكايته التي جرت على كل لسان ، ورث دكان العطارة الصغيرة عن أبيه ، و عاش مع أمه بعد زواج اخوته في بيتهم القائم أمام الزاوية و تميز بين شباب الحارة برشاقة القوام و وداعة القسما ، و دماثة الخلق و حسن العلاقات مع المعارف و الاصدقاء ، أما أول ما اشتهر به من الطبائع و ألصقها بعقله و قلبه فهو إيمانه بالعرافين و ولعه بزيارة أضرحة الأولياء ، و لم يكن يخطو خطوة حتى يستخبر أهل الذكر ، صاروا لطول الجيرة و حسن السيرة و كأنهم من صميم الأهل ، و كانت لهم بنت تدعى شمائل ولدت بعد عبيدین بعامين ، فعرفها منذ كانا يلعبان في الحارة أو تجمعهما زفة الفوانيس في رمضان ، و عرفت شمائل بإسراق الوجه و حسن التكوين ، و أتقنت منذ فترة شئون البيت ، و ما يلزم ربة البيت من ضرورات و كماليات ، فتكتب اسمها كما كانت تكتب بسم الله الرحمن الرحيم . و كان من المتفق عليه و المعروف في الحارة أن شمائل هي عروس عبيدین ، و أن عبيدین هو عريس شمائل ، و فضلا عن ذلك فقد ربط الحب بينهما ، و مهدت البسمات لمعجزة اليوم الموعود . و لما اقترب الوقت المناسب تحرك طبع الفتى الدفين ، و قال :كيف لا يفوتني سؤال الشيخ لدى كل حركة عادية أو تافهة و لا أقصده في مصير حياتي ، و أخذ بعضه و ذهب الى شيخه العارف بالله الشنواني بحجرته بأمر الغلام ، و طرح سؤاله و الآخر يقبض على يده و يشم عرقه ، ثم قال له الشيخ : اذهب الآن الى حارتك و انتظر عند مدخلها ، و سلم أمرك لأول بنت تخرج منها ، هي التي تحمل لك سعادتك المقسومة لك في هذه الدنيا ، و لن تحظى بخير الا في الآخرة. و رجع الى حارته و هو في غاية من التوقع و التوتر ، و كان على شبه يقين من البنات التي سيرها ، و لكن أين تذهب شمائل في ساعة الغروب؟ و كان سرحان الأعمى أول من خرج من الحارة ، و تلاه غلام يسوق الطوق و يغني ” على باب حارتنا حسن القهوجي ” ، و اشتد قلق عبيدین فقال في سره : ” سلمت اليك أمري يا رب العالمين ” ، و اذا بصوت ينادى ” عال الجوافة ” و ظهرت عربية يد فوقها هرم من الجوافة تدفعها حليلة ، و ضحكت هي لما رأته و قالت مداعبة : و مضت نحو الميدان ، سار و هو يقول لنفسه : ” يا رب لطفك و رحمتك ” أي عنى الشيخ حقا حليلة بنت أم حليلة ببيعة المخلل و ابنة المرحوم أحمد المكارى ؟ لا أحد في حارتنا جهل حليلة ، و هي أيضا تتعامل مع الجميع ، و لكنه كما تقول أمها مفاخرة : ” رجل بين الرجال ” ، رغم رشاقة عودها و ثرائه . و كانت مقبولة الوجه و جذابة أيضا رغم قوة نظرتها النافذة ، و خلا عبيدین الى نفسه يتفرغ للحيرة ، و يذهب مع خياله و يجيء بين شمائل و حليلة ، و شكاه سره الى صديقه الذهبي فقال له : - أى وجه للمقارنة بين شمائل و حليلة ! و انت عرفت شمائل من خلال الجيرة و المعاملة و شهادة المعارف و الجيران ، أما كلام الأولياء فليس منزلاً من السماء، و لكن ايمان عبيدین بقول الولي كان فوق أى مناقشة ، و انتشرت رائحة الخبر رويدا رويدا ، فأثارت الدهشة و الضحك كما عثت الدموع في أعين كثيرة ، و حصل كلام و نزاع و صراع ، و لكن عبيدین صمد لكل معارضة بقوة ايمان لا يتزعزع ، و في ساعة العصرية ، و قبل أن تتحرك حليلة بالعربية ذهب عبيدین الى حجرتها ، بربع الزاوى و طلب يدها من أمها ، و أخذ الخيال يتحول الى حقيقة ، و سمع حمودة في احدى الليالي يقول في الغرزة على مسمع من جميع المساطيل ”المجنونة الجشعة ما أحببت أحداً سواى و لكن أعمتها صورة دكان العطارة ” . فتبدت في صورة لامعة و زفت الى الفتى العطار فأقام معها في شقة أما السيرجة ، و دعا ربه أن يهبه السعادة التي ضحى في سبيلها بقلبه و بكل اعتبار . و كانت أياما صافية ، و انغمس عبيدین في هواه الجديد ليغضى على أصداء حبه الأول و يدفن هواجسه و فقدت الحكاية جدتها و دهشتها فلم يعد يتندر بها أحد ، و كان يمارس الحياة و يلاحظها بانتباه حتى لا يفوته سر من أسرار السعادة ، و منذ بدأ المعاشرة شعر بقوتها و صلابتها و بأنه يضعف أمام نظرتها النافذة . و الحق أنه توقع أكثر مما كان و لكنه أقنع نفسه بأن السعادة الموعودة ليست هبة بسيطة أو احساساً سهلاً يوجد بذاته منذ اللحظة الأولى ، أما حليلة فلم تنتظر ، سرعان ما ضاقت بحياتها في البيت ، و لم تعد تخفى ضجرها ، و تحير عبيدین أمام ظاهرة غير مألوفة في دنيا النساء . و لكنها قالت له بصراحة و جرأة : - دعنى أعمل فقد خلقت لذلك . و أخرسه الذهول فاستطردت: - لا يهكم كلام الناس ، متى سكتوا عنا ؟ و كانت تصر و تصمد و كان ينفع و يتراجع ، و لم تكن تهمة الحوادث ، باعتبارها مقدمات لسعادة لا مفر منها ، ألم يقل الشيخ الشنواني كلمته ؟ و شهدت الحارة حليلة و هي تشارك زوجها في دكانه و رجع الاتصال بينها و بين زبائنها القدامى ، و رجع حمودة أيضاً بين الغمز و اللمز ، و كثر اللغط و الضوضاء حتى سأله صديقه الذهبي : - أتعجبك هذه السعادة ؟ و لكن عبيدین بدا صامداً مؤمناً فقال له : - الصبر طيب و النصر قريب .